دورٌ لمواقع متعدّدة .

هناك دورٌ استجد على الساحة اللبنانية بعد العدوان الصهيوني الأخير على لبنان وهو دور بدأ صامتاً ، يترقّب النتائج ، في الثاني عشر من تموز وأخذ يتحوّل إلى ناطق مع تطور العدوان إلى أن أصبح هادراً سنفونياً مبرمجاً عند إعلان وقف الأعمال الحربية في الرابع عشر من شهر آب . دورٌ ، ماهيته الأساسية تكذيب الواقع وإفراغ النصر من مضمونه ووهجه اللذين طالا العالمين العربي والإسلامي معاً .وبما أنه دورٌ كبيرٌ وكبيرٌ جداً كان لا بد من زخم فائق للقيام به ، فتعدّدت المواقع وتتالت ومن ثم تواجدت في كل وسائل الإعلام المنحازة والمأجورة . وأقول مأجورة لأنني سمعت من بعض الذين يتحفوننا بآرائهم "الثقافية" وإطلالاتهم التلفيزيونية أنهم لا ينشرون مقالة من دون أن يقبضوا سعرها ولا يطلّون على التلفيزيون إلا بشرط المكافأة المادية . والوسيلة التي تدفع لهؤلاء ، لا بد أن تكون هي بدورها تقبض سعر البحث عنهم من مصادر توجهها كي تروج لآرائها ومواقفها السياسية . وبما أننا اليوم نعيش عصر التسليع ، تسليع كل البضائع ومنها "الثقافية" بالتحديد و التي يعتقدون أنها توازي ، بمفعولها ، القنابل العنقودية الصهيو_أميركية ، فإن سعر " المثقف" يرتفع أو يهبط وفقاً لأهمية الدور الذي يقوم به (كل القضية عرض وطلب أي تجارة) . ويعلو السعر ويهبط أيضاً وفقاً لموقع من يقوم بالدور المطلوب . فال"مثقف" ، أستاذ الجامعة له سعر، والصحافي ، المحلل السياسي له سعر ومعدّ البرامج التلفيزيونية له سعر و السياسي له سعر كما وأخيراً صاحب العمامة له سعر. أكتفي بهذه المواقع الخمسة لأن متابعتي للصحف والتلفيزيون لم تظهر لي مواقع أخرى ربما هي قائمة ولكنها لم تجذب انتباهي . يطل علينا المثقف ، أستاذ الجامعة ويستفيض بعرض أفكاره الموجَّهة لكي تصب في ضرورة المحافظة على الدولة وفي نهاية التحليل يستنتج أن الدولة هي هي السلطة الحاكمة الآن في لبنان وأن المواطن الحقيقي هو الذي يخضع ويسّلم أموره لهذه الدولة التي ، ولشدة حرصها على السيادة والاستقلال لا تبخل في تسليم كل مقوماتها ،وبخاصة ، الأمنية منها ، إلى القوى والجيوش الأجنبية الوافدة إلينا من كل أقطار العالم لكي تدافع عن وجود الكيان الصهيوني . أما الصحافيون _ المحللون للسياسة فقد غزوا ، لكثرتهم ، الشاشات ليقولوا ، مرتكزين على الأحداث التي يختارونها ، قولاً واحداً يلتقي مع قول المثقف ، فتبدأ الجوقة بالتكون. لكنها تبقى ناقصة إن لم ينجح معد البرامج في اختيارهم دون سواهم للترويج لمنطق السلطة الحاكمة . وتبدأ الصورة تكتمل حين يطل علينا السياسيون المنضوون في تيارات السلطة ليقنعوا المشاهد ، بمحاولة فاشلة ، أن ما يقولونه هو قناعاتهم وليس صوت معلميهم من الداخل ومن الخارج معاً . وتتوج الجوقة حين تظهر العمامة ، وللعمامة وقار فينطق صاحبها بكل هدوء كأنه يقول الكلمة الفصل المحاطة بهالة الحقيقة كما هو رأسه محاط بقدسية العمامة فيأتي كلامه إقفالاً للحلقة الخماسية، وهكذا نرى كيف أن الدور يبقى واحداً على الرغم من تعدد المواقع .

رب سائل من أحد هذه المواقع يقول بانفعال : ألا يجذب انتباهك المدافعون عن النصر "المتوهَّم" من مثقفين ومحللين وسياسيين ومعدي برامج تلفيزيونية وأصحاب عمائم ؟ أقول بلى كل هؤلاء يجذبون انتباهي ، لكن فاتَك أيها السائل أن إثبات الثابت (والثابت هنا بمعنى الثابت العينيّ وليس بمعنى الثابت والمتحول) ليس دوراً مسرحياً كما تكذيبه ؛ أن أصعب الأمور هو إثبات البداهة ولهذا السبب من يحاول ذلك لا يكون مأجوراً بل منتمياً ؛ بينما من ينكر الثابت ويرفض البداهة ، لا بد وأن يلبس قناعاً هو ما يسميه اليونان " برسونا" الذي يختبئون وراءه لتأدية الدور، و ترتفع كلفة تصنيع القناع وفقاً لجودتِه ، وجودتُه تقوم على قدرته على استيعاب من يلبسه بحيث يصبح هو وجهه الحقيقي ، فيختلط الوجه بالقناع ويتلاشى ويتفتّت الشخص ويندمج الموقع بالدور . هكذا تنتفي الشخصية وراء الصورة فيتمسك بها صاحبها لأن فقدانها يظهر حقيقة شخصيته الفارغة الجاهزة للامتلاء بشتى التشكّلات وفقاً لطموحاته الوصولية .

د. إلهام منصور .